الغربة المكانية
في شعر "عبد الهادي محمد خير حرب"

إعداد

أحلام عبد العالي غالي الصاعدي

باحثة دكتوراة ، قسم الأدب، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى
محاضر، قسم اللغة العربية، الكلية الجامعية بالليث
جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

المجلد السادس والعشرون للعام ٢٠٢٢م
الجزء الثاني (إصدار يونيو)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الغربة المكانية في شعر " عبد الهادي محمد خير حرب "

أحلام عبد العالي غالي الصاعدي

قسم الأدب، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، محاضر، قسم اللغة العربية، الكلية الجامعية بالليث ، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني : a-alsadiy@hotmail.com

الملخص

البعد عن المكان (الوطن) عاملا رئيسا في إحداث الشعور بالغربة الروحية والمكانية في النفس البشرية فيشعر المغترب بفراغ روحي وعاطفي تجاه المكان الذي يوجد فيه ولا يلبث هذا المكان الذي يغترب عنه الشاعر في تطوره داخل نفسه ويحاول المغترب الذي يشعر بتساوي الأمكنة في نفسه البحث عن مكان يوافق فكره وعالمه الخاص الذي بناه في عالمه المثالي الذي يرمي إليه، أو الرحيل لعالم أخر حيث مكان النشأة الأولى ومن هنا جاء المكان المعنوي الذي غلب على المكاني الحسي إي الوطن الجغرافي لنشأة الفرد طاغيا على شعور المغترب. فتمثل هذا البحث في شقين: المكان الحسي الجغرافي، والمكان المعنوي.

الكلمات المفتاحية : الغربة المكانية، الوطن، المغترب، الفراغ الروحي والعاطفي.

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

Spatial alienation in the poetry of "Abdul Hadi Muhammad Khair Harb"

Ahlam Abdulali Alsaedi

Department of Literature, College of Arabic Language, Umm All Qura University, Makkah, Kingdom of Saudi Arabia.

Email: a-alsadiy@hotmail.com

Abstract

Distance from the place (home) is a major factor in causing a feeling of spiritual and spatial alienation in the human soul. The expatriate feels a spiritual and emotional emptiness towards the place in which he is located. This place, which the poet is alienated from, continues in his development within himself, and the expatriate, who feels equal places in himself, tries to search for a place It agrees with his thought and his own world that he built in his ideal world that he aims at, or to leave for another world where the place of his first upbringing and from here came the moral place that prevailed over the sensual spatial i.e. the geographical homeland of the individual's upbringing overshadowing the feeling of the expatriate. This research was represented in two parts: the sensory geographical place, and the moral place.

Keywords: spatial alienation, homeland, expatriate, spiritual and emotional void.

بسم الله الرحمن الرحيم

الغربة المكانية في شعر " عبد الهادي محمد خير حرب " [١]

المقدمة

المكان هو ذلك الكائن غير الحي، وعلى الرغم من ذلك ينمو في ذواتنا، ولا يستطيع إنسان أن يحرّر روحه ويعتقها من التعلق بالمكان الذي وُلد وينتمي إليه، فهو مَهد الذكريات وتشَعّب المشاعر وتفاعلها مع كل شيء حوله؛ لذلك ارتبطت الغربة بالبُعد المكاني عن الوطن الذي ينتمي إليه الإنسان انتماء روحيًّا وجسديًّا؛ بغض النظر عن ماهيته. و"الانتماء نزوع طبيعي للوطن والأمة؛ حيث تنصهر الذات الفردية بالذات الجماعية"[٢]. والشعراء قديمًا قدّسوا الديار وحافظوا عليها. ورغم المعاناة في التنقّل من مكان لآخر؛ بحثًا عن العوامل الاقتصادية وظروف الحياة المعيشية؛ لكنْ للديار مكانة عظيمة في نفس العربي قديمًا وحديثًا.

---

(١) عبد الهادي محمد خير حرب، وُلد في دمشق عام ١٩٣٧م= ١٣٥٦هـ. وانتقل منها إلى بيروت ومن بيروت إلى مصر؛ حيث عاش فيها أغلب حياته ومن مصر إلى السعودية؛ للعمل بها ومنها إلى مستقر رأسه دمشق، ثم إلى مصر مرة أخرى؛ حيث وافته المنية بأرض مصر في يوم عرفة من عام ١٤٣٥هـ=٢٠١٤م، ودُفن فيها، وأوصى أن يُكتب على ضريحه أبياتًا تدلّ على انعتاقه من غربته في قوله:

رب ميت يشتهي عيش رمسه
عاش في الدنيا غريبًا مثل حسه
ثم ولى وانتهت أيام بؤسه
فبكاه الناس في ساعات عرسه

ديوان لماذا، صـ٣٠.

(٢) الغربة في شعر الجواهري: دراسة تحليلية، أحمد الصعب، مجلة اللغة العربية وآدابها،٢٠١٢م، صـ٣٦٥.

والمكان بالنسبة للإنسان هو الحياة النابضة بكل معاني الألفة والمحبة، والشعور بالأنس والسرور؛ رغم ضيق الحياة وتناقضها، ولعل أعمق ما يصوّر حب المكان وألم البُعد عنه ما بثّه النبي –صلى الله عليه وسلم– في حب مكة(١). والإنسان بشكل عام شديد التمسّك بداره ووطنه، ولا يفضّل ديارًا على دياره مهما كانت صفات تلك الديار؛ ولكن نظرة الشعراء العرب في العصور جميعها لم تكن متشابهة في التكيّف مع الغربة، فمنهم من لا يألفها، ومنهم من يألفها ويتكيّف معها ويُمارس حياته الطبيعية، ويرى فيها مجالًا واسعًا لتحقيق آمال عراض وأهداف نبيلة وسامية [٢]؛ لأن الغربة التي يعيشها لا ترتبط بمكان واحد فحسب، وإنما هي غربة متعمّقة في النفس الإنسانية بوجودها في الكون، التي ترنو لوطن أسمى أو مكان أعمق يناسب الروح المغتربة.

وحين يفقد المرء الانتماء للوطن الأم؛ فإنه يفقد الشعور بالأمن الذي يجده في رحاب الجماعة، ويشعر بأنه فرد وحيد ضائع، ويعيش في حالة اغتراب حقيقية؛ لأن الإنسان دائم البحث عن ذاته باستمرار ليحدّد موقعه في الوجود، فإذا فقد هويته، وأضاع أصالته؛ وجد نفسه عاريًا وهو يحاول أن

---

(١) بقوله:" والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت" رواه أحمد، وابن ماجه، والترمذي وصححه.

ـ وقوله: "ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك" رواه الترمذي وصححه.

(٢) انظر: الغربة والحنين إلى الديار في شعر صدر الإسلام والدولة الأموية، الرحبي، من إصدارات كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، ١٤٣٧هـ=٢٠١٦م، جامعة الملك سعود، صـ١٨ –١٩.

يجد هوية بديلة، تحقّق له وجوده [١]. والمغترب الذي يغترب عن بلاده برغبة اختيارية؛ لا تنعدم درجة انتمائه، بل يقلّ الانتماء عندما يألف أرض الغربة؛ لغربته الروحية في وطنه وفي غيره، وحين تُعكّر الحياة صفو شاعرنا –ولا سيما الحياة السياسية في العدوان الثلاثي– يبرز الإحساس بالغربة المكانية حين تسأله المحبوبة عن سبب حزنه وألمه المستمر: أهو الاشتياق للوطن والأحبة، أم طول الغربة [٢] فيجيبها بقوله [٣] (من الطويل):

فقلت لها: ما استأت يومًا لغربة ... لأنَّ نعيم العمر إبَّان غربتي
ولم يبكني طولُ الفراق ولا الضنى ... وجففت منذ الأمس آخر دمعتي

ويقول في حب أرض الغربة التي لا يرضى أن يمسّها مكروه حين ينكل بها العدوان وهو في بيروت[٤] (من الطويل):

ومصر غدت أمي ومصر عشيرتي ... ومصر هوى روحي ومصر حبيبتي

وحين يكون في وطنه يحنّ لأرض المحبوبة "أرض الغربة" التي ألفها، يقول في قصيدة (وداع القمر) [٥] (من الكامل):

لا بد من سفري لمصر وعودتي ... للعزلة الصماء رهن المخدعِ

---

(١) انظر: أزمة المواطنة في شعر الجواهري: دراسة تحليلية في ضوء المنهج التكاملي، فرحان اليحيى، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،١٤٢١ه=٢٠٠٠م، صـ٢٥٨.
(٢) في قوله (من الطويل):
أم استأت من طول اغترابك بيننا ... فنُحْت وأجري الدمعَ طولُ التشتّتِ
(٣) ديوان اللحن الحزين، ج١/١٠.
(٤) نفسه.
(٥) ديوان ضياع، صـ٤١.

وجلّ هذه الأبيات تدلّ على أُلفة الشاعر لأرض الغربة[١]، مع اختلاف درجة الانتماء للوطن الجغرافي الذي رحل عنه بمحض الإرادة، وربما لطغيان الغربة الروحية على ذاته؛ صغرت في عينه الغربة المكانية، أو ربما يرى الشاعر أن مصر وطنه الفعلي مثله مثل سوريا؛ لاتفاق مصر والشام وارتباطهما ببعض اسميًّا ومكانيًّا منذ الفتح وربما قبله.

وتتجلى الغربة المكانية بشكل فعلي عند المتنبي في رحلته إلى شيراز عن عضد الدولة؛ حيث قال[٢]:

مَغاني الشِعبِ طيبًا في المَغاني ... بِمَنزِلَةِ الرَبيعِ مِنَ الزَّمانِ
وَلَكِنَّ الفَتى العَرَبِيَّ فيها ... غَريبُ الوَجهِ وَاليَدِ وَاللِسانِ
مَلاعِبُ جِنَّةٍ لَوسارَ فيها ... سُلَيمانٌ لَسارَ بِتَرجُمانِ

وعلى الرغم من أن مسقط رأس شاعرنا كان في سوريا وليس في مصر؛ لكننا لم نجد عنده هذا السخط الواضح عند أبي الطيب، فلم يشعر أنه غريب الوجه ولا اليد ولا اللسان عن أهل مصر، وهذا إن دلّ على شيء؛ فإنما يدلّ على أن غربة الشاعر كانت روحية أكثر منها مكانية، وإن كانت للغربة المكانية يد في وصوله لغربة الروح والذات؛ ولذلك يتجلى المكان بنوعيه الحسي والمعنوي في نتاج الشاعر بارتباطه بالحنين والشوق،

---

(١) ولعل هذا الألف يعود على الاستئناس بمشاعر الحب التي يقول في قصيدة أسلا فؤادك:
بالأمس بعد الأهل اقلق مضجعي ... واليوم أنساني الغرام الآلا. أي الأهل.
بلبل حيران ج١/٢٧.

(٢) ديوان المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، المسمى بالتبيان في شرح الديوان ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة البابلي، ١٣٥٥هـ-١٩٣٩م، ج٤/٢٥١-٢٥٢.

فالأول: الحنين للوطن؛ لإحساسه بقيمة الوطن الجغرافي الذي نشأ في أرضه، وترعرع في ظله ووجود أهله[١] وأحبته والحنين إليهم؛ إذ إن هناك ارتباطًا بين الحنين والغربة، وقديمًا قيل: "اعطني غربة أعطيك حنينًا"[٢]. والآخر: الحنين لموطن الروح التي عانت في هذا الوجود أو الموطن الذي يراه مناسبًا مع فكره ومبادئه.

فالغربة التي تبعث الحنين للأهل والأحبة والصحب والمكان امتدت في نطاق واسع في دواوينه، ولعل أهم القصائد التي أغدق فيها الشاعر شعوره بالشوق والحنين والإحساس بالغربة تجلت في قصائد:"هبا"[٣]، و"أنة غريب"، و"حنين إلى دمشق"، و"أفكار جائع"، و"وقفة على عام راحل"[٤]، و"زفرة ألم"[٥]،

---

(١) ومما يحدوه الحنين إلى الوطن وجود والدته التي كانت سببًا في شوقه لوطنه، يقول في قصيدة (حتى نلتقي):

كنت لي بدمشق قلبًا طاهرًا لسواه لم أبذل دموع تشوقي

ديوان لماذا، صـ٤٥.

(٢) الغربة إلى الديار في شعر صدر الإسلام والدولة الأموية، الرحبي، صـ١١.

(٣) التي يقول فيها (من الوافر):

ألم ترني وقاك الله في الأوطان كالغربا

ديوان لماذا، صـ٣٢-٣٣.

(٤) التي يقول فيها (من الكامل):

عام يمر ولا أرى طيف الحبيب وإذا أشار الناس لي قالوا غريب

ديوان الروح الشاردة، صـ٦٥.

(٥) التي يرد فيها على صاحبه الذي عابه على كثرة ألمه وحزنه؛ الأمر الذي بدوره دعاه للقول فيها:

متغرّب عن موطني وإذا رجعت إلى البلاد يُقال: حلّ غريب

نوبٌ وآلام تؤرق مضجعي إن تطمئن على الفراش جُنوب

الروح الشاردة، صـ٥٣.

و"بلبل"(١)، و"إلى الأبد"(٢)، و"جروح"(٣)، و" عيد الأم"(٤)، و"إلـــى والـــدتي"(٥) و " عنقاء مغرب"(٦).. وغيرها.

---

(١) التي يقول فيها:

غريب فارق الأهلين والأحباب والبلدا
وسار بدربه المجهول ضليلًا يريد هدى

ديوان بلبل حيران، ج١/٢١.

(٢) التي يقول فيها (من الوافر):

غريب عاش منفردًا بلا أهل ولا وطنِ
ولا أمل يداعبه سوى الإعداد للكفنِ

ديوان بلبل حيران، ج٢/١٢١.

(٣) القصيدة التي بعث فيها شوقه وحنينه لأخته هدى.

انظر: ديوان لماذا، صـــ٧٠.

(٤) التي بعث شوقه وحنينه إلى والدته.

انظر: ديوان لماذا، صـــ١٤.

(٥) انظر: اللحن الحزين، ج٢/٣٠-٣١.

(٦) التي يقول فيها:

مضت سنتان يا وطني كسبع يوسفياتِ
بلا وطن ولا مأوى سوى عطف القراباتِ
غريب تائه قلق يعيش حياة أموات

ديوان شاطئ الخلود، صـــ٤٢.

المكان الحسي (الجغرافي):

عادة ما يلازم المكان الجغرافي الشعور بالحنين والشوق للأهل والأحبة والوطن، "فالحنين إلى الوطن لم يخلُ منه أي أدب حي في تاريخ الفكر الإنساني، وهو ملازم للغربة المكانية؛ حتى لكأنهما وجهان لعملة واحدة"(١). " وقيل في حب الأوطان: عمر الله البلدان بحب الأوطان، وكان يقال لولا حبُ الناس الأوطان لخربت البلدان"(٢). فالوطن هو المكان والمأوى الذي يعيش فيه المرء أول نشأته وتنشأ له مع أهله واحبته ذكريات تشعره بمدى علاقة الحب المترسخة للمكان وساكنيه، وشعور المغترب بحنينه لأهله وأوطانه؛ دليل على حبه ووفائه، يُقال: "إن من علامة وفاء المرء وحسن دوام عهده؛ حنينه إلى إخوانه، وشوقه إلى أوطانه"(٣).

فالمكان الحسي يحيا بذكر ساكنيه حتى وإن بعدوا عنه، فهذا قيس بن الملوح يذكر الديار ليس لحبها وإنما لحب من سكنها فيقول(٤):

أمرُّ على الديار ديارِ ليلى ... أقبِّل ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حُبُّ الديارِ شَغفْنَ قلبي ... ولكن حُبُّ مَنْ سكَنَ الدِيارَا

---

(١) الغربة في شعر السفراء السعوديين، مريم بنت سالم الرفاعي، صـ١١٩.
(٢) الحنين إلى الأوطان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الطبعة الثانية، دار الرئد العربي، بيروت -لبنان- ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، صـ١٢
(٣) انظر: الغربة والحنين إلى الديار في الشعر الجاهلي، عبد المنعم حافظ الرحبي، صـ١٥.
(٤) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي،- القاهرة- ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ج٤/ ٢٢٧-٢٢٨.

وقال ذو الرمة(١):

إذا هبَّت الأرواحُ من نحوِ جانبٍ ... بهِ أهلُ ميٍّ هاجَ شوقي هبوبُها
هوىً تَذْرِفُ العينانِ منه، وإنما ... هَوى كلِّ نفسٍ حيث كان حبيبُها

ولما كان للمكان ذكرى خاصة بحب من سكنه، سلب محبة المكان الخاصة، وعبر عمن سكنه في حيث إقامته وترحاله عنه؛ وهذا ما يظهر في ذكر الديار حين ينسبها الشاعر الجاهلي بذكر المحبوبة. لذا فالمكان الحسي الجغرافي لا يشخُص للغريب بذاته فقط، وإنما يشخص له ذاخرًا بكل ما مرّ فيه من ذكريات وأشخاص وأهل وما شابه، وقديما قيل: المكان بأهله؛ ولذا فربما تزداد رغبتنا في المكان أو رغبتنا عنه من خلال علاقتنا بمن فيه؛ ومن هنا يصبح المكان تحصيلًا لمن فيه.

وحين يبتعد الفرد عن موطنه لسبب أو لآخر، كنيل فرص الحياة العليا(٢)؛ فتتدفّق وتتفتّق المشاعر في أرض الغربة، وتبعث الحب والشوق

---

(١) ديوان ذي الرمة، قدم له وشرحه: أحمد حسن بسج، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان-١٤١٥هـ-١٩٩٥م، صـ٣٦.

(٢) الحنين والغربة في شعر معروف الرصافي، غلام عباس رضايي، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد ٣٩، ٢٠١٨م، صـ٥.

يقول الشاعر في قصيدة (هبا)، التي تحكي واقع غربته المكانية، وسبب غربته في طلب العليا (من الوافر): رعا الله مغتربًا فتى لم يعبد النصبا

ولم يعرف لغير الله في دنياه منقلبا

تغرّب يطلب العلياء لا مالًا ولا نسبا

فصارع دونها الأهوال والأسقام والنوبا

إذا ما ودع الإعصار ألفى بعده اللهبا

ديوان لماذا، صـ٣٢.

والحنين، وأول ما يكون الشوق إلى الأم والأب والإخوة ومن بعدهم الأهل، ثم الصحبة من منبت الطفولة إلى اللحظة التي غادر فيها موطنه، ولما كان للأبوين بالغ الأثر؛ فنراه يجمع بينهما في مشهد تراثي إسلامي يظهر مدى شوق كل منهما للآخر، يقول[١] (من الكامل):

يا من جمعت بيوسف أبويه هل ... عزّ اللقاء بموطني يا سيدي
فهناك أم حزنها متواصل ... وهناك يعقوب بروح يفتدي
سهرت عيونهما لنجل غائب ... كم فتّت الأكباد بين الأوحد
رقّت له ورقّ الحمام وأشفقت ... زهر النجوم على صريع تسهد

جمع الشاعر محاسن كثيرة في هذا النص، أولها: الشوق الصادق من كلا الطرفين، فيمثّل هو شوق سيدنا يوسف، ويمثّل والده ووالدته شوق سيدنا يعقوب، وليس هناك أصدق من مشاعر النبوة، ثم اتفقت أرض الغربة له ولنبينا يوسف وهي مصر، واتفق الوطن الذي يعيش فيه الأهل وهو الشام.

استطاع الشاعر أن يوظّف الموروث الديني أحسن ما يكون؛ حتى يبيّن عن مشاعره الجارفة تجاه أهله، وظهر ذلك في نسجه للأبيات التي يناجي فيها ربه، ويصف فيها حال الحزن التي وصل إليها في غربته، وحال الشوق التي وصل إليها أهله، فقد سهرت الجفون وفُتّت الأكباد شوقًا لرؤية الولد الوحيد.

وتتراءى صورة الابتلاء اليوسفي الذي ابتُلى به يعقوب عليه السلام في فقد ابنه، مُجسِّدًا في تلك الصورة المعاناة الحقيقية التي عانى منها سيدنا

(١) الروح الشاردة، صـ٩.

يعقوب عليه السلام والمعاناة النفسية والمكانية التي عانى منها يوسف عليه السلام وإسقاط المعاناة المكانية والنفسية على ذاته ببُعده عن وطنه وأحبابه، وكأن لا ملاذ له سوى بثّ الشوق والحنين للأهل والوطن، وقد قال ذلك نثرًا في مذكراته عندما غلبه شوقه: "ويقوى شعوري نحو الأهل والوطن، ولا سيما قد مرّت الإجازة الماضية[١] ولم أذهب، فأوحى إليَّ هذا الشوق أروع ما كتبته من شعر الحنين والألم، مثل: حنيني إلى دمشق[٢]، "وإلى أمي"، "وإلى والدي"، وزفرة ألم"[٣].

ومن نفاذ بصيرة الشاعر وحنكته، أنه كان يراعي الجانب النفسي والشعوري لدى المُخاطَب من أهله، فحديثه لوالده يختلف تمامًا عن حديثه لأمه في أغلب الأحيان، فمثلًا يخاطب والده قائلًا في قصيدة تحمل عنوان (إلى والدي) [٤] (من الكامل):

---

(١) يقول في قصيدة استقبال العام الدراسي ١٩٦٠-١٩٦١م (من الكامل) :

من كان قد أمضى الإجازة بالحمى فأنا الذي أمضيتها متغربا
من بات يسعد في المرابع أهله فأنا الذي أشقيت أمي والأبا

ديوان الروح الشاردة، صـ٣٠.

(٢) التي صوّر فيها غربته المكانية وشوقه لأهله ووطنه، يقول في مطلعها:

أنا لست أعلم ما أقول وأبتدي فالشوق مضن والبعاد مُسّهدي
والأهل في مغنى الشآم تشوقوا لفتى يؤرقهم وإن لم يقصدِ
لاهُمَّ هب لي من لدنك بلاغة فيراعتي البكماء ترجف في يدي
كم بات ليلي لا يروم تحوّلًا حتى يجرعني سموم الأسود
يا مغمض الجفنين صف لي ما الكرى فلقد حرمت لذيذة حذر الغد

ديوان الروح الشاردة، صـ٧.

(٣) مذكرات شموع تحترق، صـ٦.

(٤) ديوان اللحن الحزين، ج١/٨٩.

يعقــوب صــبرًا إن يوســف في محــن — والــدهر يقلِب للفتــى ظهـر المِجَـنْ
أمســى بعيــدًا عــن دمشــق وغوطــة — هــي جنــة الــدنيا إذا ذُكــر الــوطنْ
ســنة مضــت أبتــاه منــذ فراقنــا — وكأنهــا حِقــب خوالــد في الــزمنْ
وأنــا غريــب في الــبلاد وأهلــها — وســفينتي تجــري ببحــر مــن شــجنْ

فالشاعر هنا أكثر حرية في الحديث وبث الشكوى؛ لأنه يخاطب والده وكأنه يعوّل على خبرات الرجل في العموم، وأنه أكثر عرضة للهجرة والغربة من المرأة، وإن صاحبته المرأة تكون في ظله وكنفه؛ ومن ثمّ فهو أكثر جلدًا منها؛ لذلك يخصّص عنوان نصه، ثم يبدأه بحزن يعقوب، ويخبره أن الدنيا غير راغبة به، وقد قلبت له ظهر المجن سخطًا، وأن أيامه هناك لم تمرّ كعادة الأيام وإنما تمر أيامًا ثقالًا؛ حتى أصبحت سفينته تضرب به في أمواج حزنه، وهذا البوح أجدر أن نبوح به للأب من الأم؛ لأنها الأرق قلبًا، والأكثر ألمًا على ابنها ورأفة به، ولن يكون منها غير طلب العودة، وهذا على خلاف الأب الذي يعين ابنه على التجلّد.

ويظهر التفاوت في الحديث وبثّ الشكوى عندما يقارن حديثه الموجَّه للوالدة، فيقول لها(١) (من الكامل):

(١) ديوان لماذا؟ ، صـ٣٤.

أمـــي فـــديتك بـــالفؤاد بمهجـــة ... تهفـــو إليـــك بنـــاظري ومـــالي
أنـــت الحيـــاة وأنـــت مـــا أرجـــو بهـــا ... وأنـــا لأجلـــك قـــد رضـــيت بحـــالي
بســـمات ثغـــرك كفكفـــت مـــن أدمعـــي ... ودمـــوع عطفـــك أزهـــرت أمـــالي
برضـــاك ذللـــت الصـــعاب وأدركـــت ... نفســـي الرغـــاب وجلـــت كـــل مجـــال
جـــودي علـــيّ بكلمـــة... فلربمـــا ... لقـــي المحـــب هـــواه بالمرســـال

عنون الشاعر هذا النص بـــ"أنا وأمي"، وهذا على خلاف نصه لوالـــده الذي جعل عنوانه: "إلى والدي"، فالأول كأنه تذكّر؛ لتخفيف الألم على ابنها، والآخر كأنه لبثّ الحزن وسوء العيش. وهناك بونًا شاسعًا بين مشاعره في النصين، فإذا كانت الغربة هي الغربة، والألم هو الألم؛ لكنه اســتطاع كــبح جماح ألمه عند حديثه لأمه، وربما لفظ "أمي" كفيل أن يطيح بكل غربة عن الشاعر؛ بل عن الإنسان بشكل عام؛ لذلك فهو يفديها بالفؤاد، ويهفو إليهـــا بالنظر، فهي الحياة الحقيقية وما بها؛ ونتيجة لها فقد رضي بحاله لأجلهـــا، فابتسامتها أطاحت بغربته، وكفكفت دمعه، وجعلت حياته أجمل.

وهنا ذاب المكان في الأم، فلم يذكر دمشق كما ذكرها وقال: إنها جنـــة الدنيا، كما جاء في نص والده؛ لأن في حديثه لأمه مواساة له، وهذا علـــى خلاف حديثه للوالد، الذي تظهر فيه الغربة بشكل أكبر، وكلاهما استطاعا أن يخفّفا من وطء المكان على الشـــاعر، فـــالأم هـــي الأم، والأب هـــو الأب، وليتنحى المكان قليلًا؛ فهما المكان والموطن والمهـــد الأول للإنســـان. –ولا سيما– الأم التي مد لها الشاعر بساط مشاعره في الشوق والحنين في أكثر من قصيدة ويطمئن قلبها بقربه منها كما يقول[١] (من البسيط):

(١) ديوان الروح الشاردة، صـــ٥٨.

يـــا أم إنـــي علـــى نـــأيي لمقـــتربٌ مـنكم، وذكـركمُ في البعـد يشـجينا

وفي قصيدة أخرى يتجلّى الحب والشوق والحنين ببثّ مشاعر الحـــب النقي الطاهر الذي يُعطي بلا مقابل، الحب العلوي الذي رسمه فـــي صـــورة الصفاء والنقاء للأم، يقول في (عيد الأم)[١] (من الرمل):

حينمـــا أرسـل طـــرفي في العشـــي يســـأل الأكـــوان عـــن قلـــب وفيّ
صـــادق الخفقـــة، ســـامٍ، عُلـــوي لا يبيـع الحـب بـالعرض السـخي

ترســـم الأفـــلاك في لـــوح الفضـــاءِ
صـــورة الطهـــر بـــألوان الصـــفاءِ

فـــأرى لوحـــة الحـــب النقـــي صـــورة مـــن رحمـــة الله العلـــي
قلـــب خـــير النـــاس طـــرًّا ، قلـــب أمـــي

وحين تموج به الحياة في تقلّباتها ويضيع حاله؛ تسكن روحـــه بـــذكر الحب النقي، وتفيض مخيلته بتصوير حاله وحال والدته التي صـــوّرها فـــي حنانها ونورها وضياءها وأنينها وابتهالها ودعائها بصـــور يتجسّـــد فيهـــا الشوق والحنين، فيطفئه بالمكالمة الهاتفية[٢] التي تجمـــع شـــتات روحـــه وضياع حاله، ويراها رحمة سماوية وجنة إلهية في دنيا الحياة المضطربة،

---

(١) ديوان لماذا، صـــ١٤.

(٢) وإذا ما ضل سعيي في الدروب ورأيت العيش ذا وجه كئيب
فتمنيت ارتحالي، ومغيبي عن حياة أسكرتني بالكروب
ردّ لي صحوي، وأحيا لي رجائي
هاتف علمني معنى الإباء
نفسه، صـــ١٤-١٥

وبذكرها يسكن كل شيء. مكررًا جملة "صورة من رحمة الله العلي"، و"قلب خير الناس طرًّا قلب أمي"، تلذذًا بنعمة وجودها، ووجود الحب النقي الـذي فقده في علاقاته العاطفية، والذي يمنحه الصبر والجَلد على نوائب الـدهر؛ فتبعث في داخله الشعور بالرضا والإيمان والتسليم بقضاء الله.

وحين يشتد الحنين والشوق إلى الأهل والوطن في يوم العيد، يقول في قصيدة (في يوم العيد) [1] (من مجزوء الوافر):

أيـــــوم العيـــــــد طــــــالعني ... ولا عيـــــــد بمعتقــــــــدي
أتــــــى ليلًــــــا ليبصـــــرني ... غريـــــب الأهـــــل والبلــــد
بعيـــــد عــــن صـــفاء العـــيش ... والأفـــــــراح والرغــــــد
أكفكـــــف دمعــــــتي بيـــــد ... وأمســـــك مهجـــــتي بيـــــد
وأقضـــــي الصـــــبح في نكـــــد ... وأقضـــــي الليـــــل في ســـــهد
وجـــــيبي قـــــد خـــــوى فلســـــا ... وقلـــــبي ذاب مـــــن كمـــــد

و"تشتد هموم الشاعر المغترب، وتتوقّد شاعريته، ويتوهّج وجدانه إذا ما حلّ العيد وهو بعيد عن وطنه وأهله"[2]؛ فيفقد لذة الفرحة بالعيد، فينهيه من حياته ومعتقده؛ لبُعد الأهل والأحبة وغربة الوطن. ويصف شعوره فـــي أرض الغربة بمراقبة العيد له ليلًا، حين يطالعه ويرمقه بـــالنظرات وكأنـــه يقصده في غربته، فيأتيه ليلًا؛ ليشجي روحه. والليل عنده وعند كل مغترب مرتبط بالمعاناة النفسية والوجدانية، التي تشدّ مـــن أزر الغربـــة المكانيـــة والاجتماعية ببُعد الأهل، وغربة المكان ووحشته، وقلـــة المـــال. ويصـــوّر

---

(١) ديوان اللحن الحزين، ج٢/١١٥.

(٢) العيد في الغربة، جابر قميحة، مقال، ميدان، ٢٠٢٠م.

للمتلقي شعوره بصورة حركية تتراءى في حركة اليدين التي تُكفكف إحداهما الدموع، وتلم الأخرى المهجة من شدة الألم والروعة؛ فيذهب عنه النوم، ويتعكّر صفو ليله وصباحه؛ فلا يشعر بمتعة العيد.

وحين يبثّ الشاعر حنينه وشوقه لأحبته؛ فيتضح أن للمرأة حظًّا كبيرًا في حياة الشاعر(١)، سواء قصدنا بها الأم، أو الأخت، أو الابنة، أو الزوجة، أو الحبيبة، فالمرأة هي حياة الرجل، وهي مصدر قوته وضعفه؛ ولذلك لن تجد شاعرًا إلا وللمرأة نصيب فيه؛ حتى إنه إذا لم يعشق حقًّا تظاهر بالعشق؛ ومن ثمّ فالمرأة في حياة الرجل الغريب يكون حضورها أكثر، وهذا ما يظهر عند شاعرنا، فقد ذكرها في غربته، وذكر مواضع اللقاء وإن كان أثرها في نفسه أكبر من المكان الذي يلقاها به، يقول(٢) (من الوافر):

حبيبي أصل نشأته (دمشق) وقد علقته في (اللاذقية)
أحل الدهر سفك دمي إليه وحرم وصله أبدًا عليا

يعرّفنا الشاعر بحبيبته ونشأتها، وإن كان في الحقيقة يحدّث نفسه لتسعد بذكرها وتشقى في الوقت ذاته، فقد سعد بقربه منها ومعرفته بها، فهي من دمشق، وقد وقعت بقلبه في "اللاذقية"؛ لكن دهره أعانها عليه، حيث سفكت دمه ولم يظفر بها أبدًا، وعلى الرغم من ذلك فإنه يذكرها في غربته ويرجو أن تعود، يقول(٣):

---

(١) انظر: ديوان ضياع، صـ٦-٧-٣٦-٣٨-٣٩-٤١-٤٣-٤٥-٥١.ديوان لماذا؟، صـ١١-٣١-٣٤-٣٩-٤١-٤٥-٧٠.

(٢) ديوان اللحن الحزين، ج١/١٩.

(٣) ديوان اللحن الحزين،ج١/٢٠.

فعـــودي نبعـــث الماضـــي ونحيـــي شـــبابًا لم يـــزل نضـــرًا نـــديّا
تعـــالي نـــذكر العُصـــر الخـــوالي تعـــالي نرشـــف الخمـــر الشـــهيا
تعـــالي أســـعدي بالوصـــل قلـــبي أريحـــــي راحتيـــــك براحتيـــــا

وهنا يقول لها: عودي، ومن الطبيعي أنه يخاطبها لا يخاطب المكـــان؛ لأنها ستعود وتكون معه؛ لكن ليس في الموضع الذي عرفها به، وكأنها هي المكان أو كأن المكان أصبح متمثّلًا فيها، هذا غير أنه لا يطلب إلا الذكريات وما كان بينهما وما أجمل همسه عندما يقول: "أريحي راحتيك براحتيا".

وما سبق أبان عن الذكريات، ودور الأهل والأنس في ذهاب الغربـــة؛ فقد ذكر ما ذكر ولم يشر إلى وطن أو موضع بعينه يُذهب عنه ما فيه، بقدر ما بثّ لوالده كي يخفّف عن نفسه، وبقدر ما تذكّر بسمات أمه فأراحت قلبه، وبقدر ما ذكر من احتضان راحته لراحة محبوبته؛ فيشعر بالأمان.

وتتجلى غربة الوطن والإحساس بغربة المكان بالشوق إلى الأصـــحاب ومن لهم مكانة عميقة في القلب، في حين يبعـــث لـــه أســـتاذه وصـــديقه الـــمُقرّب من الشام رسالة يواسيه فيها، ويوصيه بالصبر والجَلّد على مُـــرِّ الأيام، فإن روحه تشتاق لموطنه، يقول[١](من الوافر):

(١) الروح الشاردة، صـــ٢٥.

إلامَ البؤس يعشقني إلامَ — وعشق البؤس للشعرا علامَ
يمر الليل بالأدباء سُهدًا — إذا ما الناس قد رقدوا نياما
أأستاذي المبجّل ألف عذر — إذا ما جُنَّ عقلي واستهاما
فسقت القول كالمحموم يهذي — وقلت الشعر يضطرم اضطراما
قرأت كتابكم فشممت عطرًا — يذكّرني المرابع والشآما
يذكّرني بلادًا كدت أقضي — - لأجل بُعادها المضني- غراما

فالشوق للأحبة والأصحاب يقضّ عليه مضجعه، وها هو يخاطب أستاذه بنداء القريب؛ لقربه من روحه ووجدانه، فيبثّه ألم البعد والسقم، وكأنه في حالة هذيان من الحمى حين أتاه الكتاب؛ حيث تتراءى في الذهن الصورة الحركية في استلامه للكتاب، واستنشاق عطر الشام، مكررًا لذة الاستمتاع بالوطن "بالمرابع والشام وبلادًا"؛ لتأكيد صورة الاشتياق للوطن الذي حُرم منه. فالوطن صورة حية في نفس المغترب؛ حتى وإن بعُد عنه بُعدًا إراديًّا فيظلّ الحب والشوق ثابتًا لا يتحوّل بكثرة التنقلات؛ بل يزيد الشوق والحنين والشعور بالانتماء والولاء لهذا الوطن. والحنين إلى الأوطان غريزة في نفس الإنسان العربي منذ القدم، وقد ارتبط الحنين بكرامته واعتزازه بوطنه؛ لذا كانت الغربة عن الوطن همًّا شديدًا (١). و"قد قيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية، ولزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان. وقيل: ما الذل؟ قال: التنقّل في البلدان، والتنحّي عن الأوطان. وقال بعض الأدباء: الغربة ذلة، والذّلة قلة" (٢).

---

(١) انظر: الحنين والغربة في الشعر العربي والحنين إلى الأوطان، يحيي الجبوري، صـ٩.
(٢) نفسه، والمحاسن والأضداد، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، عني بتصحيحه محمد أمين الخانجي الكتبي، مطبعة السعادة، مصر،١٣٢٤هـ، صـ٧٨.

فالعلاقة بين المرء ووطنه علاقة محبة تسعد باللقاء، وتئن وتتصدّع بالفراق، وحين يمرّ الوطن بأدنى عوارض تؤثر فيه؛ يؤثر ذلك في نفس الشاعر، فيصوّره بما تمليه عليه مشاعره وأحاسيسه. فالشاعر الحزين والمغترب عن وطنه لا يجد سوى الدموع، التي تعدُّ معادلًا موضوعيًّا لحالته النفسية، التي تنعكس على قصائده. وفي قصيدة (جدب وخصب) تبرز العلاقة الوجدانية التي تربطه بوطنه؛ إذ الوطن هو المحبوبة التي فارقها، مُصوّرًا مشهد الفراق الذي أثر فيهما. وحين قلّت الأمطار؛ تغيّرت أرض دمشق فأجدبت شوقًا، وهام فيها حبًّا بربطه بين حالة الجدب عليهما بفراقه عنها؛ مما يعكس شعوره تجاهها، يقول [١] (من الكامل):

قالوا: دمشق تغيرتْ لفراقكم ... شأن الحبيبةِ فارقت محبوبا
إن أجدبت أرض الشام وأمحلت ... غبَّ الفراق فليس ذاك عجيبا
بالأمس قد روت دموعي ربعها ... فغدا بتهتان* العيون خصيبا
واليوم لم تطفئ دموعُ صبابتي ... شوقًا يضرّم في الفؤاد لهيبا
لا تعجبوا إن جفّ دمعي أن يصير ... الربع في بلدي الغداة جديبا

لم يذكر الشاعر دمشق إلا حبًّا للمكان، وقد جعل الوطن والحبيبة التي يألف إليها سيانًا؛ ومن ثمّ فما يؤثر في حبه يؤثر في دمشق، وما يؤثر في دمشق يؤثر في حبه، ولولا مكانة المكان في نفس الشاعر؛ لعدل عنه وذكر المحبوبة فقط، لكنه ربطهما في علاقة تصويرية معًا؛ لمكانة كل منهما في

---

(١) ديوان الروح الشاردة، صـ٦٣.

* التّهتان: الهت الصب، والسحابة تهت المطر إذا تابعت صبه. يهته هتا: صب بعضه في إثر بعض.

لسان العرب، ابن منظور، باب الهاء، مادة هتت، صـ ٤٦١١.

نفسه. هذا غير أنه زاوج في مفرداته بين القديم والحديث؛ ليبيّن أصالة المكان الذي يتحدّث عنه؛ مما يُوحي بارتباطه بالموروث العربي، وركون نفسه إليه بوصفه شيئًا يُخفّف من وطء الخسران الذي مُني به في حالة خسرانه لوطنه، بحالة الجفاف في كليهما، بتوازي الألم في بيان عدم الدمع مع كبته له، الذي يُوحي بعمق هذا الألم وتجذّره في وجدانه، ولعل امتداد الغربة الروحية المتأصلة في داخله، والمكانية التي تشكو ألم البُعد؛ تظهر واضحة جلية في هذا النص ما بين أمس يروي أرضه بدموعه، وحاضر يشكو جفاف دمعه لعمق ألمه.

ولما كانت دمشق مسقط ذكرياته، ومهد ريعان الشباب؛ كان من الطبيعي أن تتردّد كثيرًا في شعره بأكثر من طريقة وكيفية، فيقول مثلًا عندما ودّع أحد زملائه المسافرين إلى دمشق، التي حُرم منها آنذاك[١]:

ودعته والوقت كان أصيلًا ... والشمس شمَّرت العشي ذيولا[٢]
فمضى على بركات ربيّ باسمًا ... ورجعت أرسل زفرة وعويلا
اليوم يبصر بلدتي وأنا هنا ... أرسلت روحي للبلاد رسولا
هلا قضيتم للمحب مرامه ... هلا شفيتم للفؤاد غليلا
يا تاركين الصبَّ رهن تغرّب ... يا مزمعين إلى دمشق رحيلا
وطن عشقت سماءه وربوعه ... وهويت فيه الزاكيات أصولا

(١) ديوان الروح الشاردة، صـ٧٩.

(٢) في هذا النص يتناص الشاعر مع أبيات أحمد شوقي والتي يقول فيها:
وإذا أصيبَ القومُ في أخلاقهم ... فأقمْ عليهم مأتما وعويلا
الشوقيات، لأمير الشعراء أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى، مصر – القاهرة–، ٢٠١٢م، صـ٢٤٧

فالمشاعر المتأجّجة بالشوق والحنين للوطن تبلغ ذروتها حين يودّع الأحبة لأرض الوطن، بينما هو يبقي في غربته يصارع الحزن الذي يعتلج في الفؤاد، ويغلي في الوجدان؛ فيحترق بالغربة، ويرسل أشجانه وأحزانه متلذذًا بذكر سمائه وربوعه، واصفًا فتيات بلاده، ومترنمًا بالأماكن الخلّابة التي اشتاق إليها شوق المُغرَم الهيمان. وهذا الذكر الذي استوحاه من مخيلته وذكريات نشأته وصباه تداخل مع أحاسيسه، فـ"الخيال مرتبط بالذاكرة، ويتداخل مع الأحاسيس التي تعتلج صدره للوطن" [١]. فـ"المكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكّرنا بذكريات ماضية"[٢]، يقول[٣]:

أميمّما وطني، ليهنك مربع ينسك رسمًا دارسًا وطلولا

وهذا الشوق الذي اجتاح مخيلته بذكر الأماكن، يتلوه ذكر الأحباب، طالبًا من صاحبه أن يُقرأ عليهم التحية والسلام لدمشق ومن فيها، يقول[٤]:

يا صاحبي بلّغ دمشق تحية واذكر لديها صبَّها المخبولا
ما بي خبال غير أنّ غرامها سلب العقول وأنكر المعقولا
واقرأ على شيخي السلام مباركًا بمبارك تخذ الصلاح سبيلا

(١) شعر الغربة عن الوطن بين القديم والحديث، عبيدة الشبلي، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، ٢٠١٨م، صـ٨.

(٢) نفسه، وانظر: جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، ط٢، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان، ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م، صـ٦.

(٣) ديوان الروح الشاردة، صـ٧٩.

(٤) نفسه، صـ٨٠.

فالحب الدمشقي ثابت لا يتحوّل، وإن تحوّل عنه بالتنقل بين المواطن، فبُعده عن وطنه زاد من شعوره بالانتماء إليه؛ حتى وإن حُرم منه، ويدلّ ذلك على وفائه وحبه للوطن الذي قيل فيه: "حب الوطن من طيب المولد، وبحب الأوطان عُمّرت البلدان، ولولا حب الناس للأوطان لخسرت البلدان"(١). يقول في حبها الذي لا يتبدّل(٢):

أدمشق إن عزّ اللقاء فلن أرى ... لك في بلاد العالمين مثيلا
عيني لبعدك أنكرت معنى الجمال ... وكنت أنت على الجمال دليلا
علمًا بأني واجد في أرض مصر ... معلّمًا ومصاحبًا وخليلا
لكنَّ قلبي في الغرام مُوحد ... لا يعرف التبديل والتنقيلا

فإحساسه بفقده للمكان شعور عميق ينبثق من صميم وجدانه؛ لأنه فارق وطنه في وقت مبكر. والمفارق لوطنه يظلّ حزينًا لوجود دواعي الحرمان ولواعج الفقد من رؤية المكان الذي درج فيه صباه، وانحفرت فيه ذكرياته؛ فتستدعي الذاكرة ذكريات الوطن وجماليات المكان.

ولعل في الأبيات السابقة تظهر غربته المعنوية أيضًا، أو على الأقل بداية الانحراف لها؛ حيث يشتاق إلى دمشق، وهذا طبيعي لأي فرد نشأ في مكان ما، أو ربما زاره ومكث فيه ولو قليلًا، فالاشتياق أمر بديهي عند الجميع؛ لكن الغريب في إشارة الشاعر لما يجده في مصر من أنس، يقول(٣):

---

(١) من مظاهر الحنين إلى الوطن في شعر أحمد الوائلي، جواد عواد سبهان، بحث في كلية الآداب، جامعة أهل البيت، صـ٦.
(٢) ديوان الروح الشاردة، صـ٨١.
(٣) نفسه، صـ٨١ .

علمًا بأني واجد في أرض مصر معلّمًا ومصاحبًا وخليلا

وما دليل ذلك القول غير أن الغربة المعنوية قد بدأت تتمكّن من نفسه، وليس في الأمر حنينًا لمكان بعينه، فماذا يريد غير الأحبة والأنس والمعلم والصاحب والخليلا؟! وهل إذا عاد إلى دمشق تنتهي غربته؟ في إجابة هذا التساؤل مفتاح لنفس الشاعر وما يجول فيها، فهو يحنّ لكل أرض بقدر معين، ولا يفضّل مكانًا على مكان عنده إلا بشيء من الذكرى لا المكان بعينه، ودليل ذلك أنه يقول وهو في دمشق بقصيدة (وداع القمر) [١] (من الكامل):

لا بد من سفري لمصر وعودتي للعزلة الصماء رهن المخدعِ

تظنّ هنا أنه ما أحب مصر إلا للعزلة والغربة، وابتعاده عن الذين يعرفهم، وأن الأمر لا يتعلّق بالمكان ولا بمن عرفهم فيه؛ لكن عندما ننظر إلى قوله عن مصر وهو في بيروت؛ يتغيّر هذا الظن؛ حيث يقول [٢] (من الطويل):

ومصر غدت أمي ومصر عشيرتي ومصر هوى روحي ومصر حبيبتي

فهذا البيت يوحي إليك أن مصر هي كل ما لديه وما يحن إليه في هذا العالم؛ لكن سرعان ما ينقلب حال الشاعر، فهو وحده الذي يستطيع أن يقول: "أحب، أو لا أحب" في الوقت ذاته، وهو صادق في الحالتين.

(١) ديوان ضياع، صـ٤١.
(٢) ديوان اللحن الحزين، ج١/١٠.

أما عن دمشق، فكلما أراد الشاعر أن يفصح عن حبه لها "من حيث إنها مكان وموضع نشأة"؛ فتراه يسند إليها شيئًا، فمرة يجعل منها معادلًا لمحبوبته، ومرة يذكرها عند وداع صاحبه، وثالثة يذكرها ويربطها بأمور دينية، كأنه يحاول أن يدفع نفسه دفعًا لها، يظهر هذا في نصه الذي يحمل عنوان "حنين إلى دمشق"، يقول فيه[١] (من الكامل):

ولقد ذكرتك يا دمشق ومدمعي ... ينهل مثل المعصرات على الصدي
وذكرت حورك والنسيم مداعب ... شجراته، يا للغصون المُيَّد
وذكرت أعيادًا بربوتك التي ... حلف الزمان بمثلها لم يسعد
آوى المسيح وأمه لقرارها ... وتمتّعا بمعين ماء أبرد

يُذكر الشاعر نفسه والمتلقي ما لدمشق من مكانة، فحسبها أنها آوت سيدنا المسيح عليه السلام وسيدتنا الطاهرة العذراء "مريم"، وكأن هذا الأمر فقط هو الدافع لحب دمشق! ولا تعني الباحثة أنه لا يحب دمشق؛ ولكنها تظنّ كل الظن أن كل البلاد عند الشاعر سواء، وليس الوطن في حاجة لأمر ديني أو غير ديني لحبه، وإنما الشاعر كلما أحسّ في نفسه تساويًا بين الأماكن؛ ألحّ على نفسه كي لا تكون دمشق كغيرها.

ودليل ذلك ذكره وأنسه بطيبة[٢]؛ إذ تشعر أنها بالنسبة إليه المكان والوطن والأهل وكل شيء، وما ذاك إلا لأنه ظنها ملاذًا وانعتاقًا لغربته، وهذا لمكانتها الدينية التي تميّزت بها عن سواها، هذا غير أن الروح

(١) ديوان الروح الشاردة، صـ٧.
(٢) كتب فيها أكثر من نص يدلّ على حبه وتعلّقه بها، كقصائد: (طيبة الطيبة، وفي جنة البقيع، وفي الذكرى السادسة والخمسين، وبين البقيع والروضة).
انظر: الديوان السابع، صـ١٠-٢١-٢٣-٢٨.

الصوفية أو السلام الذي نشأ بينه وبينها تراه من مستهل النص؛ حيث يقول[١] (من الرجز):

الحمد لله الذي	أذهبَ عنَّا الحزنَا
أحلنا دار المقا	مة التي تُسْعِدَنَا
من بعد ما شردنا	عامين أو غَرّبنَا
أعادنا لربعنا	وأهلِنا وبَيْتِنا

فاضت الروح الدينية والألفة لطيبة من نفس الشاعر، فظهر الأنس بها في قوله؛ حيث الأثر الديني الواضح من قول الله تعالى: "وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن"[٢]. وما في هذه الفرحة من الكرم العظيم والخير الوفير بدخول الجنة التي لا يضاهيها فرحة؛ إلا أن انجلاء الغربة بالفرحة المكانية بوجود قطعة من الجنة في المدينة المنورة؛ جعلت الشاعر يستدعي المأثور الديني في النص القرآني بمطلع الأبيات وما بعدها، متخذًا من المدينة وأهلها مسكنًا وبيتًا، بدليل تسميته للمكان بالربع والأهل، في إضافة للنون الدالة عليه، ولعل هذا النص دليل على غربته المكانية في بلده وفي البلدان التي تغرّب فيها. والحنين للمكان الأصلي جعله يختار طيبة بلدًا يأنس فيها؛ لوجود المصطفى – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم– والروضة الشريفة التي تدلّ على بلد النشأة؛ حينها تنعتق الروح من السجن المُطبق

(١) الديوان السابع، صـ١٨.

(٢) سورة فاطر، الآية ٣٤.

الذي فرضه على ذاته، متخذًا من المدينة المنورة بلدًا تنعتق فيه غربته، ويجد فيها حريته، يقول[١] (من الكامل):

وإذا بروحي أُطلقت من سجنها وإذا بنفسي أُوتيت تقواها
ما عدت أعشق في البلاد سواها داربها باهى الزمان وتاها

مصورًا مدى حبه وطيب اللقاء بعد طول الغربة والبعاد عنها، بقوله[٢] (من الكامل):

وتغرّبت روحي فلم تبصر ولو في رقدة الأحلام طيف رؤاها
وجرت بأمواج الظلام سفينتي وأضعت في تيه الجوى مرساها
وجفا فؤادي الصب طيف صفائه وجفا عيوني في البعاد كراها
ولما سألت نوالها بلّغته وإذا الحبيبة أرسلت يمناها
حضنت فؤادي بعد طول تغرّب فإذا الوجود بليلها وضحاها

وحين يشكو الشاعر من غربته الروحية التي أضناها التيه والضياع والألم؛ يجد ذاته في تلك المدينة التي يحسّ فيها بوجوده الفعلي الكائن فيها؛ حيث دلّت المفردات: (الحبيبة، ويمناها، وحضنت، والوجود) على إثبات الراحة النفسية للذات المغتربة، سواء من ناحية الحب، أو صفة اليمين التي أثنى عليها القرآن في أصحاب اليمين، أو الحضن الذي يدلّ على الأمان العاطفي. والوجود الزمني في الليل والنهار دليل على قدرته على التمييز بين الزمنين؛ إثباتًا لوجوده فيها، هذا الوجود الذي غمره بفرحة اللقاء بعد

(١) الديوان السابع، صـ١٠-١١.
(٢) نفسه.

طول اغتراب[١]. وفي هذه الفرحة بالاختيار الإرادي للمكان؛ يعطي دلالة واضحة على غربته المكانية في وطنه، وفي واقعه المُعاش، الذي جعله يرتبط روحيًّا وجسديًّا مع بلد يناسب الروح المُغتربة عن الحياة المادية التي لا تتناسب مع الحياة الروحية السامية التي يطمح إليها في ظل المتغيّرات في أرض الواقع.

ومما يدلّ على حبه لتلك المدينة، رضاه بالغربة في كل بلد؛ لكنه يعدّ مسكنه في طيبة ليس بغربة في حدّ ذاتها؛ بل يشتاق إليها حين الرحيل عنها، ومن ذلك قوله[٢] (من الطويل):

تغرّبت عن داري وربعي وموطني ... وما زلت أحيا بالتغرّب راضيا
وأبحرت في لجّ المحيط فليتني ... أرى الشط يدنو لي فألقى المراسيا
ويا ليتني بعد كرب وغربة ... نجوت بجلدي لا علي ولا ليا
ويا ليت شعري هل أعود لطيبة ... فتصلح حالي بالوصال وباليا

وفي هذا النص الذي يبرهن على إحساسه بالغربة المكانية في كل بلد سوى طيبة، التي آنست روحه وجسده؛ لما تحمله من معانٍ روحانية وأحاديث نبوية. وهذا الركون لطيبة ما هو إلا لمكانتها الدينية، وأنه يشعر أنه غريب ما دام في هذه الدنيا، وما حبه لطيبة إلا لعلاقتها بالمستقر

---

(١) الديوان السابع، صـ١٠-١١.

(٢) في قوله (من الكامل):

قد طفت في طول البلاد وعرضها ... واخترت بعد تغربي سكناها
فالآن غرّق بالدموع ترابها ... والآن عفّر بالسجود جباها

الديوان السابع، صـ٢٣.

الأخير، هذا إضافة إلى عامل العمر، حيث له أثر قوي في تقويم النفس أو في ارتدادها عن شيء ما.

ولا ينكر أحد أثر المكان، ولا سيما لو كان هذا المكان مدينة رسول الله -ﷺ- لذلك لا يعتد بشوق الشاعر إليه، ولا يعني هذا الشوق وألفته للمدينة أنه انعتق من غربته المكانية؛ وذلك لأن كل عربي، بل كل مسلم في الأرض يألف ويركن ويأنس بمدينة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن ثمّ فالشاعر لم يختلف عن غيره في هذا الأمر، وإنما ما تظنّنه الباحثة أن الشاعر لم ينعتق من غربته الروحية ولا المكانية إلى أن مات، ويؤكد الشاعر نفسه هذا المذهب حين يقول[1] (من الكامل):

وأنا الغريب بكل أرض زرتها	وأنا الغريب بموطني وبآلي
وكأنني الحظ التعيس وقد جرى	من سوء مبتدأ لسوء مآلِ
وكأنني هيمان جن جنونه	يسعى لنقل البحر بالغربال
وكأنني – وأنا القنوع – مُطالِبٌ	ببلوغ آمالي بلوغ مُحالِ
إني إذا ذكر الشقاء وأهله	واستشهدوا بي كنت خير مثال

ويسلمنا هذا النص إلى الشق الثاني من هذا المطلب، وهو المكان المعنوي الذي يكمن في نفس الشاعر، ويذهب به هنا وهناك، ويجعله يظن كل بلد له وطنًا، وها هو ذا يُصرّح في بيته الأول بغربته المُطلقة التي يجدها في كل مذهب يذهب إليه، فهو الغريب الدائم – سواء في بيئته أو خارجها- ويقول: إن حظه ليس تعيسًا، وإنما هو سوء الحظ نفسه والتعاسة ذاتها، منذ وُلد وإلى أن يرحل، ومن تخبّطه كأنه يسعى إلى نقل البحر

(١) ديوان لماذا، صـ٣٥.

بالغربال؛ وهذا محال! وكأن هذه الصورة تماثل في نفسه المبادئ التي ينادي بها، فإن صحّ نقل البحر بالغربال؛ زالت غربته، وفي النهاية يقرّ أنه مضرب المثل في الشقاء والبؤس.

ولا يصل إنسان في الدنيا إلى هذه الحال إلا بعد أن يجد الأرض ضيّقة عليه، وأنه لا يركن إلى بلد؛ لأن الغربة ذاتية ومطلقة؛ ومن ثـمّ فالمكـان بالنسبة إليه لا شيء، فلا مكان يصلح نفسه ويعيد إليه بهجتها وصفوها.

المكان المعنوي:

إذا تأصّلت الغربة في نفس صاحبها، وصارت غربة روحيـــة ذاتيـــة؛ فإنها لا ترتبط بمكان، وإنما تكون نابعة من أعماق الـــنفس، وكلمـــا ذهـــب صاحبها إلى مكان شعر بغربته؛ فيصبح أمر المكان معنويًّا، ويصبح الغريب باحثًا عن القيم التي ينادي بها، أو القضية التي ينشدها في كل مكان ذهـــب إليه، ولا يختلف هذا الأمر عن قديم أو معاصر، فها هو ذا مريد البرغـــوثي ــ وسبب غربته القضية الفلسطينية ــ يقول[١]:

أنا لا سرير يدوم لي

لا سقف يألفني طويلا

أما الأحبة لست ألمسهم

وإن قالوا "الإقامة" قلت بل قصدوا "الرحيلا"

يقول البرغوثي: إن أسرته لا تدوم، وأن الأسقف أصبحت لا تألفه، ولا يرى أحبة ولا يلمسهم، وإن أخبروه ببقائهم قال: إنهم يقصـــدون الرحيـــل. ويقول: كل هذا على الرغم من حياة الألفة التي عاشها في مصر، ومردّ ذلك كله أن غربته غربة روحية، والمكان بالنسبة إليه معنوي، وكـــل مكـــان لا يؤدي إلى قضيته وخدمتها بالشكل الذي يراه هو؛ فهو مكان غربة حتـــى إذا وجد فيه كل ملذات الحياة.

(١) طال الشتات، مريد البرغوثي، دار الكلمة، بيروت، صـــ ١٠٢.

ومن الشعراء القدامى الذين نهج مريد نهجهم دريد بن الصمة، عندما قال(١):

وَمَـا أَنَـا إلا مـن غَزِيّـةَ إنْ غـوَتْ غوَيْتُ وإنْ تَرشُدْ غزِّيَةُ أَرْشُدِ

وعلى الرغم من أن دريدًا نصح أخاه بعدم استراحة الجـيش، وعـدم تقسيم الغنائم قرب غزوهم لغطفان؛ لكنه رفض ذلك، فمكث معهم دريد مـع علمه بفساد رأيهم، وبعدها قال بيته السالف؛ وهذا دليل على النصرة للقبيلة مهما كانت النتائج، وأن الغربة الحقيقية هي البُعد عن القبيلة، والقبيلة قديمًا هي المكان، وكل ما دونها غربة قاحلة.

ومن الشعراء من يرى غربته في أخلاق ومبادئ يُنـادي بهـا ولـم يجدها؛ فتصبح الأرض ضيّقة عليه، ويرى نفسه الأعظم فيهـا، مثـل أبـي الطيب المتنبي الذي يقول(٢):

وَإِنَّمـا النـاسُ بِـالمُلوكِ وَمـا تُفلِـحُ عُـربٌ مُلوكُهـا عَجَـمُ

وهو لا يرى فلاح كافة العرب ما دام حاكمهم غير عربي، أو بالأحرى يُملي عليه ما يفعل وما لا يفعل من غير العرب؛ ومن ثمّ تضيق الدنيا علـى اتساعها، ويكدر العيش على صفوه.

ومع ابتلاء الوطن العربي بالاستعمار والصهيونية؛ يصبح الوطن كيانًا يُحمل داخل الذات المجبرة على المغادرة... فالوطن أصبح لـدى الشـعراء الفلسطينيين نبضًا يُحمل في الصدر، وهذا أبو سلمى يتحدّث عن علاقة البُعد

(١) ديوان دريد بن الصمة، تحقيق الدكتور: عمر عبـد الرسـول، دار المعـارف، القـاهرة، صـ٦٢.

(٢) ديوان المتنبي، شرح العكبري، ج٤/٥٩.

والقرب للوطن فلسطين، البعيدة قسرًا وواقعًا، والقريبة من نفس الشاعر أملًا بالعودة والرجوع، يقول:

وطني هل سمعت من خفق قلبي أغنياتي وهل شجاك النشيد؟
قد حملناك في القلب وكنا نتناجى وأنت دانٍ بعيد

وربما اتخذ الوطن مفهوم الأنثى، وما ترمز إليه المرأة من ارتباط عاطفي بين الرجل والمحبوبة. والوطن وفق هذا التجسيد يتخذ من المرأة رمزية تختزل الحالة العاطفية؛ ليصبح تجربة مشتركة تنصهر فيها الذات بالجماعة، لتصبح الأرض بوصفها الجسد الترابي الذي خُلق منه البشر هي المرأة؛ كونها الأم والوالدة، أو الزوجة المنتجة، أو الحبيبة الحلم، حيث تذوب فيها المشاعر والأحاسيس كلها، فتُبدى من خلال هذه الثنائية المرأة/الوطن... (١).

وهذا المكان المعنوي المتجسّد في تحقيق المبادئ والقيم، أو القبيلة، أو المرأة التي يتخذها الشعراء وطنًا ومسكنًا؛ لا يسعه مكان حسي، فيشعر الغريب بغربة المكان الموجود فيه، ويصبح الكون الأرضي بكل ما فيه سجنًا مطبقًا يقيّد حريته، وهذا السجن دليل على الحنو لفضاء أرحب وموطن أعمق تجسّدت صورته في غربته الروحية، في حين اتخذ من المرأة – سكنًا وأنسًا ووطنًا– صورة للجسد الترابي الذي نشأ منه الخلق، ثم محاولته للسمو بها لعالم الروح الذي يأنس به، ويسعد باللجوء إليه. إنه يشعر في عالمه الواقعي بسجن يحيط به من الاتجاهات كلها، فيُقيّد ذاته، محاولًا

(١) انظر: مقال بعنوان: مفهوم الوطن في الأدب العربي، د/ طامي دغيليب، صحيفة الجزيرة، السبت ٢٧-مايو-٢٠١٧م، العدد (١٦٣١٢).

الفرار بها إلى عالم أرحب وفضاء أوسع، وهو الموطن الأول مكان النشـأة. هذا المكان الذي يحنّ إليه حين يضيق به الفضاء الكوني، ويكـون سـجنًا معنويًّا[١] يحاول الشاعر التخلّص منه، يقول في قصيدة (البؤس والزواج) [٢] (من البسيط):

سـأعيش عمـري بـالأحزان مرتقبًـا ... يومًـا سـتُعتق الـروح مـن جسـدي
ويطلـق الطـير مـن سـجن يعذبـه ... كيمـا يحلّـق في جـو بـلا كَبَـد
فـإن أتـى عاجلًـا حـل الهنـاء وإن ... عـني تـأخرّ أطلقـت القطـا بيـدي

لم ينعتق الشاعر يومًا من غربته الروحية التي تجذّرت داخله، وأنـه دائم الترحّل مُذ خلق، وأنه أيضًا ساخط على هذا العالم منذ مولده، وها هـو ذا يقول وهو في مرحلة الشباب من قصيدة (صراع)[٣] (من الوافر):

قضـيت بسـجنها عشـرين عامًـا ... وأربعـة، أمـا آن ارتحـالي
سـجين يشـكر السـجّان رغمًـا ... ويخضـع للعصـيّ وللنكـال
يتـيم لا يـرى أهليـه أهـلًا ... غريـب داره عـين المُحـال
أصـارع في الهـوى روحًـا وجسـمًا ... فأصُـلي نـار حربهمـا السِّـجال
وأطلـب بالهـدى إصـلاح نفسـي ... فتهـديني الحـوادث للضـلال

---

(١) يقول في قصيدة فكرة (من الرمل):

إن يكن همي كبير ... فليكن عندي طاقهْ
فحياة الروح سجن ... ثم تأتي الانطلاقهْ

ديوان ضياع، صـ٥٩.

(٢) ديوان اللحن الحزين، ج١/٨.

(٣) بلبل حيران، ج٢/ ١٢٥.

أي غربة تلك التي تخيّل لشاعر شاب في مقتبل العمر أن الحياة سجنٌ، إلا غربة قد جُبل عليها، فأغلقت عليه منافذ الحياة؛ فأصبح لا يرى موضعًا في الأرض يتسع له ولما يريد أن يصل ويفعل، فالسجن وما يوحيه من دلالات؛ يدلّ على فقد الحرية، وانعدام الذات وعزلتها، ووحشة المكان وضيقه، ويُسقط عذاب السجن وهوان السجين على روحه المعذبة؛ مما يدلّ على غربته التي اغتربت عن الوجود الإنساني. ويُصرّح الشاعر بذلك السجن المتعمّد[١] حين يصف غرفته في أرض الغربة، متخذًا من زاويتها سجنًا معنويًّا، يقول في قصيدة (ملل) [٢] (من الكامل):

وسجنت نفسي عامداً في ركنها وتركت روحي كي تحلّق في زُحلْ

فهذه غرفته – سواء كانت في الشام أو مصر أو غيرهما– ما يراها إلا سجنًا، وأنه إذا بقي بنفسه تلك في بيته وبين أهله وموضع نشأته؛ فلن

---

(١) كما في قصيدة أنا وأمي (من الكامل):

حسبي إذا ما الروح غادر سجنه أني لقيت منيتي بنضالي

انظر: ديوان لماذا، صـ٣٤.

وقوله في قصيدة (من وحي المرض) (من الكامل):

والروح قد سجنت بصلصال إلى أن تهدّم السجن الرهيب وفاةُ
والمرء ضيف، والحياة بلا قِرى وإذا قرت فالهمُّ والنكباتُ
بين الولادة والفناء مراحلٌ العمر فيها غربة وشتات

ديوان الروح الشاردة، صـ٥٥.

وقوله:

وأرى في الموت عيشًا راضيًا وانطلاقًا من متاهات السجونْ

ديوان شاطئ الخلود، صـ٧.

(٢) الروح الشاردة، صـ١٧.

تزول غربته لأن المكان لديه أصبح معنويًّا؛ ولذلك فإذا وصل إلى ما يطمح إليه؛ فإن غربته ستزول في أي مكان نزل به.

وتصويره لمعاناته الروحية والجسدية بسجنه في عالمه الفسيح الذي تاه فيه؛ دليل على تطلّعه لعالم أرحب، ومما يدلّ على ذلك تصويره لسجن روحه أيام عمله في أبها، وحين خرج منها إلى المدينة يتلو قوله تعالى: (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن)[١]. يقول: "لقد كانت أبها سجنًا لي وأي سجن، على الرغم من الاحترام والتقدير ..."[٢]. ولعل أعمق ما يصوّره الشاعر في سجن روحه في هذا الكون، تصويره للحياة الهائنة عند فناء الجسم من هذا الوجود، يقول في قصيدة (صلوات) [٣] (من الوافر):

فناء الجسم للأرواح بعث وسجن الروح في جسمي شقائي

وبهذا التصوير اتخذ السجن في الحياة شكلًا من أشكال الغربة المكانية المعنوية التي يعاني منها الشاعر، والحنين ليس للوطن الجغرافي، وإنما لمكان الروح الأول. وبهذا الحنين تتجسّد صورة أخرى من صور الوطن الذي يبحث عنه الإنسان المغترب في عالم الواقع، يقول في قصيدة (على شاطئ الخلود)، التي رثى فيها نفسه بتصويره لمعاناته واشتياقه للموت؛ طلبًا للراحة وانعتاق الروح لموطنها الأصلي[٤] (من الرمل):

جاهدت حتى رأت موطنها فتلقت فيه أجر الصابرينْ
حمدت راحمها واستبشرتْ واستقرت في رحاب الخالدينْ

(١) سورة يوسف، الآية ١٠٠.
(٢) مذكرات شموع تحترق، صـ ٣٤٥٧.
(٣) ديوان الروح الشاردة، صـ٣٥.
(٤) شاطئ الخلود، صـ١٠.

وحين يكون المكان معنويًّا – حيث اللامكان يضمّ تلك الروح المغتربة– نراه يصف تنقّله من مكان لآخر، ومن بلد لأخرى؛ حيث يتأمل حياته في هذا التنقّل، وما انطبع على وجدانه بنزف جراحه، وأن لا مكان يحوي نفسه النازفة المغتربة في قصيدة (وداع)، حينما غادر من أبها للمرة الثانية إلى المدينة، بناء على رغبته في الاختيار [١] (من الكامل):

أمضيت جلّ العمر رهن تغرّب	كسفينة سكرى بهوج رياحِ
أنا لم أغادر طول عمري موطنًا	إلا تفتّح ورده بجراحي!
أبحرت من وطني ودمعي لُجَّة	وزفير أشواق والهوى ملاّحي
خلّفت أرض الشام وهي عزيزة	وتركت في مصر الهوى ومراحي
أنا شاعر تروي الطيور قصائدي	والريح تُعول من أنين نُواحي

صوّر الشاعر ذلك السفر والتنقّل والتغرّب في الحياة بالسفينة السكرى، التي تعيث بها الرياح، وتضطرب وتدور في مسيرها. ولعل تلك الحركة المُشاهدة في صورة السفينة المضطربة تعدُّ معادلًا موضوعيًّا لحياته، التي لا تخلو من التيه والضياع والغربة الساحقة، ويحاول الشاعر أن يأوي إلى مكان يرتاح فيه في ذلك التنقل؛ إلا أن كل مكان يُشجي شعوره بالأسى والألم، واصفًا شعوره عند مغادرته لبلده بعويل الريح.

ولما كانت الغربة معنوية لا ترتبط بمكان بعينه، يحاول الشاعر أن يضفي لفظة وطن على كل مكان يذهب إليه، ونحن في العادة نعرف أن الوطن هو المكان الذي ينشأ فيه الفرد، وربما يُقال: إن الشاعر يعدّ العالم العربي كله وطنًا له؛ لكن مع الإيمان بذلك نستطيع أن نتلمّس حاجته إلى

(١) الديوان السابع، صـ١٢.

وطن خاص، ويظهر ذلك في تسميته للشام وطنًا، ولمصر وطنًا، وللمدينة وطنًا، وللجزائر وطنًا، ولعمان وطنًا[١]... وهو وإن كان – كأي عربي– يرى العالم كله وطنًا واحدًا؛ لكنه بحاجة إلى وطن خاص، وكلما تخيل ذلك واتكأ على موضع بعينه؛ خُذل في نهاية الدرب؛ مما جعل المكان بالنسبة إليه أمرًا معنويًّا؛ ولذلك فلن تنتهي غربته، سواء مكث في مسقط رأسه أو غيره؛ لأن المكان بات رمزًا لا يرتبط بموضع لديه.

---

(١) يقول في قصيدة يوم الجزائر:

لبيك يا بلدي لبيك يا وطني ... لن يخذل الله أشتاتًا إذا اعتصموا

الروح الشاردة، صـ٤٥.

ويقول في عمان:

عمان منا وإن حلّ الهوان به ... لا بد أن ينصف التاريخ عمانا

يا قطعة من بلاد الشام من وطن ... لم يعرف الذل في يوم وما هانا

نفسه، صـ٤١.

الخاتمة:

حين ينتقل الشاعر من مكان لآخر، بحثًا عن الاستقرار النفسي والمكاني والاجتماعي – نتيجة للظروف التي أحاطت به– تتضح الرؤية الفلسفية لغربته المكانية في هذه الحياة. فالمكان في نظره انبلج من كونه نوعين متلازمين – حسي ومعنوي– تجلى في كليهما الشوق والحنين؛ فالحسي شوقه إلى المكان الجغرافي ومن سكنه من أهله وأحبته وصحبه، وقد ظهر في عدة قصائد شتى، منها: إلى والداتي، ورسالة إلى أم وحيدها [١]، وإلى والدي، وأنا وأمي، وجروح في أخته هدى، وقصيدة قلب الشاعر لشقيقته أم كمال. وقصائد الشوق والحنين إلى الوطن والأحبة، كحنينه إلى دمشق، وأنة غريب، وأفكار جائع، وزفرة ألم، وغيرها؛ حيث تُبيّن هذه القصائد مدى إحساسه بالغربة المكانية في شوقه وحنينه لوطنه، الذي ميّزه بما يتحلّى به من جماليات المكان الطبيعية والدينية.

أما المعنوي الذي صوّره الشاعر في مكان يلائم روحه المغتربة في عزلته بالسجن، الذي يُوحي بالوحدة والبُعد عن المحيط الاجتماعي، وإيجاد مكان من اللامكان، وسجن من غير سجان وقضبان؛ لكنها صور معنوية حسب حالته النفسية بتصويره للمكان الذي أسره، وضاق عليه في نفسه، بسجن روحه ومشاعره وأحاسيسه، ووصفه لمنزله في وطنه وفي غربته[٢] باختياره زاوية منعزلة يحبس فيها ذاته؛ مما يعطي دلالة على ضيق المكان

---

(١) هذه القصيدة التي جاءت على لسان والدته، ويصف فيها شعورها تجاهه، بعكس ما يصف شعوره تجاهها.

(٢) انظر: في وصف غرفته في أرض الغربة قصيدة (بسمة ودموع في استقبال ووداع)، ديوان اللحن الحزين، ج١/٤٢.

في نفسه، الذي يحيل إلى الذهن بمكان موازٍ للقبر الذي جاوره بالمنزل المكاني في حياته. ووصف حاله وحال أهل القبور، متخذًا من الموت سبيلًا إلى الخلاص من الفضاء الكوني المتجلي بصور استعارية تُمثّل حاله، وضياع ذاته بوصفه "بمتاهات السجون"، التي سئم منها؛ إذ يقول في قصيدة (ترنيمات)[١]:

قد سئمت العيش في ظل الإسار وسئمت السجن في هذا الترابْ

فالسجن، والمنزل الضيّق، والقبر؛ كلها أماكن مغلقة تبيّن حال غربته وسأمه وضيق عيشه، وترسم نظرته السوداوية التي أظلمت حياته، وزادت من حزنه ومعاناته. وما هذه الغربة التي انبلجت من وجدانه إلا للبحث عن مكان معنوي، يريد الوصول إليه حسب فكره ومبادئه وطموحه، وحسب ما سبق في حديثه عن الأوطان؛ إذ يرى الشاعر أن البلاد العربية كلها وطن له.

(١) ديوان الروح الشاردة، ص٢١.

المصادر والمراجع:

أولا: المصادر المخطوطة:

- ديوان الروح الشاردة، للشاعر عبد الهادي محمد خير حرب.
- الديوان السابع، للشاعر عبد الهادي محمد خير حرب.
- ديوان اللحن الحزين، للشاعر عبد الهادي محمد خير حرب.
- ديوان بلبل حيران، للشاعر عبد الهادي محمد خير حرب.
- ديوان شاطئ الخلود، للشاعر عبد الهادي محمد خير حرب.
- ديوان ضياع، صـ٤١. للشاعر عبد الهادي محمد خير حرب.
- ديوان لماذا، صـ٤٥. للشاعر عبد الهادي محمد خير حرب.
- مذكرات شموع تحترق، للشاعر عبد الهادي محمد خير حرب.

ثانيا: المراجع المطبوعة:

- القران الكريم.
- الحديث النبوي.
- أزمة المواطنة في شعر الجواهري: دراسة تحليلية في ضوء المنهج التكاملي، فرحان اليحيى، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م.
- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، ط٢، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان-، ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م.
- الحنين إلى الأوطان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الطبعة الثانية، دار الرئد العربي، بيروت -لبنان- ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

- الحنين والغربة في الشعر العربي والحنين إلى الأوطان، يحيي الجبوري، دار مجدلاي للنشر، الأردن، ٢٠٠٨م.
- الحنين والغربة في شعر معروف الرصافي، غلام عباس رضايي، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد ٣٩، ٢٠١٨م.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي،- القاهرة- ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- ديوان المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، المسمى بالتبيان في شرح الديوان ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة البابلي، ١٣٥٥هـ-١٩٣٩م
- ديوان دريد بن الصمة، تحقيق الدكتور: عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة.
- ديوان ذي الرمة، قدم له وشرحه: أحمد حسن بسج، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان-١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- شعر الغربة عن الوطن بين القديم والحديث، عبيدة الشبلي، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، ٢٠١٨م.
- الشوقيات، لأمير الشعراء أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى، مصر – القاهرة-، ٢٠١٢م.
- طال الشتات، مريد البرغوثي، دار الكلمة، بيروت.
- العيد في الغربة، جابر قميحة، مقال، ميدان، ٢٠٢٠م.
- الغربة إلى الديار في شعر صدر الإسلام والدولة الأموية، الرحبي.

- الغربة في شعر الجواهري: دراسة تحليلية، أحمد الصعب، مجلة اللغة العربية وآدابها،٢٠١٢م
- الغربة في شعر السفراء السعوديين، مريم بنت سالم الرفاعي، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات بمكة المكرمة، ٢٠٠٢م.
- الغربة والحنين إلى الديار في الشعر الجاهلي، عبد المنعم حافظ الرحبي، دار الرسالة، دمشق، ٢٠١٢م.
- الغربة والحنين إلى الديار في شعر صدر الإسلام والدولة الأموية، الرحبي، من إصدارات كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، ١٤٣٧هـ=٢٠١٦م، جامعة الملك سعود.
- لسان العرب، ابن منظور، طبعة دار المعارف.
- المحاسن والأضداد، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، عني بتصحيحه محمد أمين الخانجي الكتبي، مطبعة السعادة، مصر،١٣٢٤هـ.
- مقال بعنوان: مفهوم الوطن في الأدب العربي، د/ طامي دغيليب، صحيفة الجزيرة، السبت ٢٧-مايو-٢٠١٧م، العدد (١٦٣١٢).
- من مظاهر الحنين إلى الوطن في شعر أحمد الوائلي، جواد عواد سبهان، بحث في كلية الآداب، جامعة أهل البيت.

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١٧٤٥
٢-	Abstract	١٧٤٦
٣-	المقدمة	١٧٤٧
٤-	المكان الحسي (الجغرافي) :	١٧٥٣
٥-	المكان المعنوي:	١٧٧٥
٦-	الخاتمة:	١٧٨٣
٧-	المصادر والمراجع:	١٧٨٥
٨-	فهرس الموضوعات	١٧٨٨